مجموع مؤلفات ابن سعدي (٣١)

شرح كتاب

أصول الإيمان

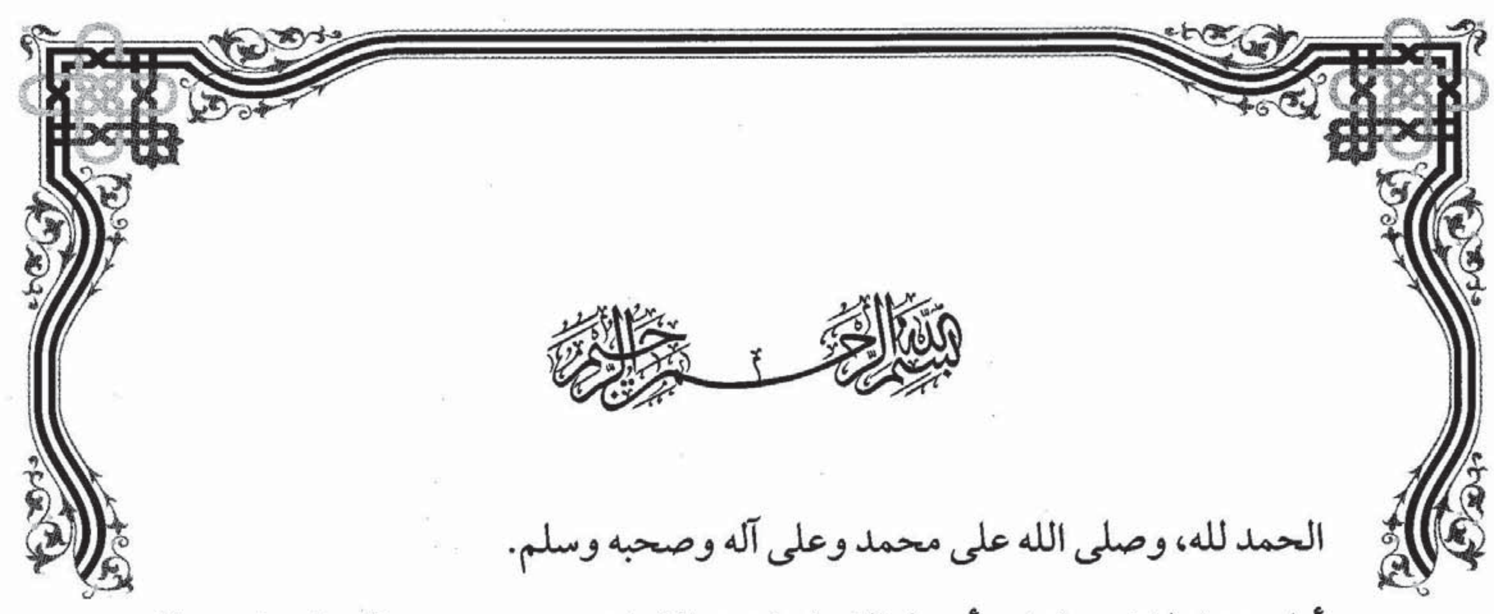
للشيخ محمد بن عبد الوهاب

تأليف
الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

يطبع لأول مرة



الحمد لله، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد: فهذا شرح كتاب **أصول الإيمان** لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب قدس الله روحه، قال رحمه الله:

باب معرفة الله والإيمان به

معرفة الله والإيمان به أصل الأصول كلها، وكلها تتأسس على ذلك، ومعرفة الله تعالى هي معرفة ما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا وأفعاله الحكيمة، ولا بد مع معرفة الله من الإيمان به وهو الخضوع التام في الباطن والظاهر لله والقيام بعبوديته وإخلاص الدين لله تعالى، واعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على هذه المعارف الجليلة وفصلها تفصيلا عظيما، وهي أعظم مقاصد القرآن لكن المؤلف رحمه الله لم يذكر الآيات القرآنية وإنما ساق شيئا من الأحاديث النبوية؛ لعل ذلك اكتفاء بما هو معروف لكل أحد أن القرآن مشتمل على هذه المقاصد.

١- قال رحمه الله: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**». رواه مسلم[(١)].

هذا الحديث عظيم يشتمل على وجوب الإخلاص لله في كل عمل ديني؛ وهو أن يقصد العامل بعمله وجه الله وثوابه لا غير ذلك من الأغراض قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[البينة: ٥]. فأعظم الفروض على الإطلاق أن يقوم العبد بأصول الإيمان الستة وشرائع الدين الخمسة، ويقوم بالإحسان يقصد بذلك وجه الله والدار الآخرة، وهذا هو مقصود توحيد الإلهية وتوحيد العبادة؛ لأن الألوهية وصف الله الذي لا يشاركه فيه مشارك، فالله أعظم الأسماء الحسنى، معناه: ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين. والعبودية حقه تعالى الذي لا يصرف شيء منها لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا لغيرهما

(١) مسلم (٢٩٨٥).

من المخلوقات، فمن أشرك بالله شيئا فقد رفض هذا الإيمان الذي هو أوجب الواجبات وقد دخل في الشرك وعمله باطل؛ لأن الله أغنى الشركاء لا يقبل عملا أشرك فيه العبد.

ولكن الشرك في العمل نوعان:

- شرك أكبر يخرج العبد من الدين بالكلية؛ وهو أن يعمل العمل ويتعبد به لغير الله بأن يصرف نوعا من العبادة لغير الله؛ فمن صلى لغير الله أو سجد لغير الله أو دعا غير الله أو خافه أو رجاه أو تقرب إليه بشيء مما أمر الله به ورسوله - فهو مشرك كافر.

- **النوع الثاني**: أن يعمل العمل لله لكن يقصد به مع ذلك مراءاة الخلق وتعظيمهم، فهذا هو الرياء وهو من الشرك الأصغر، والعمل الذي يشاركه الرياء من أصله يدل عموم هذا الحديث أنه باطل مردود على صاحبه، ومع بطلانه فقد باء صاحبه بالإثم؛ لأنه ترك الإخلاص الواجب عليه، ولأنه وسيلة إلى الشرك الأكبر، وجميع الوسائل للشرك والذرائع التي توصل إليه من الشرك الأصغر، فالشرك الأكبر هو: صرف شيء من العبادات لغير الله، والأصغر هو: ارتكاب ما يوصل إلى ذلك؛ لكن لو عمل العبد العمل لله ثم طرأ عليه الرياء في أثناء عمله فإن دفعه ولم يساكنه لم يضره؛ بل هذا من جهاد الخواطر الردية التي تعرض لكثير من النفوس، فإن لم يدفعه بل ساكنه واطمأن إليه نقص العمل نقصا كبيرا، ويخشى من استمراره مع الإنسان أن يوصله إلى الرياء المحض المبطل للعمل بالكلية.

وقد دل على هذا الأصل العظيم الذي تضمنه هذا الحديث نصوص كثيرة جدا من الكتاب والسنة؛ لأنه الأصل الذي خلق الله له الخلق من الإنس والجن وأمرهم به، ودعت إليه جميع الرسل وجميع الكتب، وهو روح الدين الذي لا يقوم إلا به.

٢- وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: **«إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل**

النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه». رواه مسلم[1].

وهذا أيضا حديث عظيم تضمن معنى الحي القيوم، العظيم، المقسط، فهذا الحديث فيه بعض التفصيل لمعاني هذه الأسماء الحسنى؛ فالقيوم هو الذي قام بنفسه وقامت به جميع الموجودات؛ به وجدت، وبه صلحت وحفظت، وبه قامت السماوات والأرض، ومن كمال حياته وقيوميته أنه لا ينام ولا ينبغي له أن ينام؛ لأنه جل جلاله كامل من جميع الوجوه لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه، والنوم فيه راحة من التعب، وفيه غيبة الأشياء عن النائم والله تعالى لا يمسه تعب ولا لغوب ولا يغيب عن علمه وبصره وسمعه وتدبيره مثقال ذرة في العالم العلوي والعالم السفلي، وهو القائم على كل نفس بما كسبت بعدله وقسطه وحكمته ولهذا قال: «**يخفض القسط ويرفعه**». يعني: أن تدبيره للموجودات التي تنزل من عنده والتي تصعد إليه كلها لا تتجاوز القسط والعدل؛ بل هي دائرة بين فضله وعدله فلا يظلم العباد مثقال ذرة ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠]. وهو المجازي للمحسن بإحسانه وفضله، والمسيء بعدله وحكمته، فالخلق كلهم معترفون بحكمته وحمده؛ ولهذا بعدما يقضي بين العباد يوم القيامة بالقسط العظيم ينطق الكون كله بحمده والثناء عليه كما قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]. حتى المعذبون في النار يدخلون النار وقد اعترفوا بعدله وأنهم هم الظالمون كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨ - ١١].

ومن كمال قيوميته على كل نفس بما كسبت أن أعمال العاملين من خير وشر ترفع إليه بوقتها حتى إن عمل **الليل** الماضي يرفع إليه قبل عمل النهار الذي يليه، و**عمل** النهار الماضي

---

(١) مسلم (١٧٩).

إذا انتهى النهار يرفع إليه قبل عمل الليل الذي يليه، ترفعه الحفظة وترفعه الملائكة الذين يتعاقبون على الناس؛ ملائكة الليل وملائكة النهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الصبح، فتنزل ملائكة الليل عند الشروع في صلاة العصر، وتبقى ملائكة النهار حتى تفرغ صلاة العصر، وكذلك في الصبح كما ثبت بذلك الحديث الصحيح(١). وهذا من نعمته على الآدميين أن نزول هؤلاء الملائكة وقت الصلاة الفاضلة وصعودهم بعد فراغها ولهذا إذا سألهم ربهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي قالوا: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون، وما فعل ذلك جل جلاله وعظم كرمه إلا تنويها بهم وإرادة لإكرامهم وصلاة منه عليهم قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الأحزاب: ٤٣]. ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٩]. ثم ختم الحديث بذكر كمال عظمته وجلاله ومجده وملكه وملكوته؛ فقال: «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه** - أي: جماله وجلاله وبهاؤه - **ما انتهى إليه بصره من خلقه**». وذلك العوالم كلها لأنه تعالى لا يغيب عن بصره وسمعه وعلمه منها شيء، فلو كشف هذا الحجاب العظيم لاحترقت المخلوقات بأسرها؛ لأنها لا يمكن أن تثبت لعظمة العظيم؛ ولهذا لما سأل موسى ﷺ ربه أن ينظر إليه قال: ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. أي: لن تقدر ولا تثبت لرؤيتي ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف: ١٤٣] الآية. ولهذا كان أصح الأقوال أن النبي ﷺ لم ير ربه في الدنيا وإنما حال النور بينه وبينه كما في حديث أبي ذر(٢) الذي في الصحيح قال: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ قال: «**نور أنّى أراه**»(٣). ولولا أن الله تعالى ينشئ أهل الجنة نشأة عظيمة وحياة كاملة لما ثبتوا لرؤية ربهم، وقد ذكر في هذا الحديث النور المخلوق وهو نور الحجاب الذي بينه وبين خلقه، والنور الذي هو وصفه بقوله: «**لأحرقت سبحات وجهه**

(١) البخاري (٥٥٥)، مسلم (٦٣٢).

(٢) في المخطوط (ذكر). وهو خطأ محض.

(٣) مسلم (١٧٨).

ما انتهى إليه بصره من خلقه». أي: نوره وبهاؤه وجماله وجلاله الذي هو وصفه، فالله تعالى نور وحجابه نور، ومعرفته والإيمان به في القلوب نور، وكتابه نور ورسوله نور.

واعلم أنه لا تتم معرفة الله والإيمان به إلا بثلاثة أمور:

- **أحدها**: معرفة ما لله تعالى من الأسماء والصفات والأفعال الثابتة بالكتاب والسنة والتفقه في معانيها.
- **الثاني**: الاعتراف بها والإقرار بها على الوجه اللائق بعظمة الله تعالى وجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل، ومن غير نفي لشيء منها ولا تعطيل.
- **الثالث**: الانقياد ظاهرا وباطنا لله، وطاعة الله بتصديق خبره وامتثال أمره واجتناب نهيه.

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: **«يمين الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار؛ أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه، والقسط بيده الأخرى يرفع ويخفض»**. أخرجاه في الصحيحين(١).

هذا الحديث دل على سعة فضله وكمال عدله وإثبات اليدين لله، وسبيلهما سبيل جميع الصفات أنه تعالى موصوف بكل صفة كمال، وله من تلك الصفة أعظمها وأوسعها، وأنه كما لا يماثله أحد في ذاته لا يماثله أحد في شيء من صفاته، ومن نفى شيئا منها متوهما أن ظاهر ذلك التشبيه فقد غلط أفحش غلط؛ فإن الصفات تابعة للموصوف، ومن أثبت شيئا منها دون شيء فقد غلط فيما نفاه وتناقض تناقضا يدل على بطلان قوله، وقد وضح النبي ﷺ في هذا الحديث سعة غناه وسعة عطاياه، وأنه كما أن جميع الموجودات في فضله وكرمه منذ خلقها ولا يخلو آنٌ وحال من الأحوال إلا ولله عليها كلها نعم وإحسان لا تحصى أنواعه فضلا عن أفراده، ومع هذا العطاء الواسع الشامل لجميع المخلوقات في كل الآفاق لم يغض من فضله وكرمه مثقال ذرة؛ لأن فضله وكرمه وغناه من لوازم ذاته، وخزائن العوالم

(١) البخاري (٧٤١١)، مسلم (٩٩٣).

كلها بيده وتحت تصريفه وتدبيره، وإذا أراد شيئا قال له كن فيكون، فلا يتصور أن ينقص شيء من كمال غناه ومن سعة عطاياه مثقال ذرة، والله ذو الفضل العظيم وكذلك سائر صفاته؛ كعلمه وكلامه وقدرته وحكمته وغيرها، فلو نسب علم الخلائق كلهم من أولهم إلى آخرهم إلى علمه لم ينقص من علم الله إلا كما ينقص العصفور إذا نقر في البحر كما قال ذلك الخضر لموسى ﷺ[1]، ومن كمال غناه أنه قال على لسان نبيه ﷺ: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ورطبكم ويابسكم قاموا في صعيد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر**». رواه مسلم[2].

وإذا أخبرنا الله في كتابه أو على لسان نبيه عن غناه وسعة كرمه فذلك يتضمن أمرين:

- **أحدهما**: أن نعرف ربنا بهذا الوصف العظيم، فإن معرفة الله أجلّ المطالب وأعلى الرغائب.
- **والثاني**: حث منه لنا أن نزداد طمعا في فضله وكرمه وأن نسأله كل وقت جميع مطالبنا الدينية والدنيوية.

ولما بين في هذا الحديث سعة فضله ذكر فيه أيضا شمول عدله وأن القسط بيده الأخرى يخفض من يستحق الخفض ويرفع من يستحق الرفع، بحسب الأسباب التي جعلها الله موصلة إلى كل من الأمرين، وهو المحمود على رفعه وخفضه. وحكمته وضعه للأشياء مواضعها وتنزيله للأمور منازلها اللائقة بها؛ ولهذا كان المسلمون كلهم يقولون: إن تفضل وتكرم وأحسن إلى عباده فذلك من فضله، وإن عذب وعاقب فإن ذلك من عدله.

وما أحسن ما قاله بعضهم[3]:

---

(١) البخاري (١٢٢)، مسلم (٢٣٨٠). (٢) مسلم (٢٥٧٧).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٩٥.

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع

وفي قول النبي ﷺ: «**وبيده الأخرى القسط**». ولم يقل: اليسرى ولا الشمال بيان أنه لا يوصف إلا بالكمال ولا يستعمل لذلك إلا أحسن الألفاظ، ولهذا في بعض ألفاظ هذا الحديث: «**وكلتا يدي الرحمن يمين**»[(١)].

٤- وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان فقال: «**أتدري فيم ينتطحان يا أبا ذر؟**». قلت: لا. قال: «**لكن الله يدري وسيحكم بينهما**». رواه أحمد[(٢)].

هذا الحديث مع الحديث الصحيح وهو قوله ﷺ: «**إن الله ليقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء**»[(٣)]. مع قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]. على قول أكثر المفسرين تدل على أن الحيوانات غير المكلفين يحشرها الله ويقتص لبعضها من بعض؛ ليرى العباد كمال عدله حتى في الحيوانات العجم، ولا ينافي ذلك أن التكليف بالأمر والنهي والشرائع خاص بالثقلين الإنس والجن، لأن هذا نوع خاص من القصاص في ظلم بعضها بعضا، والله تعالى جعل لها معرفة لمنافعها ومضارها؛ فإنه أعطى كل شيء خلقه، ثم هدى كل مخلوق إلى ما خلق له، فهي تعرف ما ينفعها من مأكل ومشرب ووقاية من الإضرار، والقوي فيها إذا آذى الضعيف منها عرف ظلمه في ذلك، وكما أنه تعالى يجري عليها في الدنيا من التنعم والتألم وأسباب الإضرار ما يجري مما هو مقتضى طبيعتها ومقتضى حكمة الله - فأي مانع يمنع من بعثها، وأن يجري عليها من الجزاء المؤقت ما يوافق العدل والحكمة؛ ولهذا ورد

---

(١) الطبراني في المعجم الأوسط (٧٦٣٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٧٠٩).

(٢) أحمد (٢١٤٣٨). وأثبتنا الحديث كما ورد في أحمد وغيره، وقد ورد في المخطوط بلفظ: وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان فقال: «**أتدري ما ينتطحان يا أبا هريرة؟**». قلت: لا. قال: «**لكن الله يدري وسيقضي بينهما**».

(٣) مسلم (٢٥٨٢)، أحمد (٧٢٠٤)، الترمذي (٢٤٢٠).

أنه بعدما يقتص لبعضها من بعض يقول لها: كوني ترابا[1].

وأما الجزاء على التكاليف الشرعية التي جاءت بها الرسل ونزلت بها الكتب والانتهاء إلى دار القرار إما الجنة أو النار دائما أبدا - فذلك خاص بالمتقين كما تواترت به النصوص، وإذا كانت هذه الحيوانات في الدنيا قد تكون عند من يكرمها ويدفع عنها الأذى، وعند من هو بضد ذلك، وذلك راجع إلى حسن الملكة أو إلى سوئها، وهي لم تعمل من الظلم ما يوجب عقوبتها ولا من الإحسان ما يوجب إكرامها في كثير من الأوقات، بل إباحة الله للإنسان ذبحها الذي هو أعظم آلامها؛ تقديما لمصلحة الإنسان على مصلحتها، وأباح له استعمالها بالحمل والركوب والحرث وغيرها من الأعمال لهذا الغرض فكيف لا يجازي ظالمها على ظلمه.

هذا كله بيان أن ذلك موافق للحكمة وللواقع؛ ليعرف بذلك حكمة الشارع، مع أنه يجب على العبد أن يخضع لكل ما ثبتت به نصوص الكتاب والسنة سواء فهم حكمته أو فهم بعضها أو لم يفهمها، فإننا نعرف من حيث العموم أن لله الحكمة في كل شيء وفي كل تدبير قدري وشرعي وجزائي، وهو المحمود على ذلك وإنما قلت ذلك دفعا لقول من قال: إن مثل هذه النصوص يراد بها التمثيل لبيان عدله وأن الواقع بخلاف ذلك، وهذا قول ينافي صريح النصوص، ولكن بعض الناس إذا انعقد في قلبه بعض الشبه حمل على النصوص بالتأويل والتحريف الباطل، والواجب أن تكون العقول تابعة لما جاءت به الرسل مهتدية بشرائع الله وأحكامه التي هي غاية في الكمال والحسن ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. والعقول لا تكمل ولا تهتدي بغير ما جاءت به الرسل؛ انظر إلى من طغوا بعقولهم وعلومهم واستكبروا بها عما جاءت به الرسل كيف كان حالهم وكيف كانت لهم العواقب الوخيمة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣]. الآية. وقال تعالى:

(١) الغيلانيات (١١٢٥)، تفسير عبد الرزاق (٧٨٦).

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. ثم انظر إلى أئمة الهدى ومصابيح الدجى لما تم اهتداؤهم بما جاء به الرسول كيف فَضَلوا جميع الخلق في عقولهم وعلومهم وهدايتهم وأخلاقهم؟ وكيف كانت لهم العواقب الحميدة والآثار الجميلة والذكر الحسن مدى الأوقات؟ وفي هذا وهذا عبرة لأولي الألباب.

وفي هذا الحديث بيان إحاطة علم الباري بجميع المخلوقات جلائلها ودقائقها حتى إنه يعلم الأسباب التي دعت الحيوانات إلى تصرفاتها المتنوعة فهو يعلم السر وأخفى، ومن باب أولى وأحرى يعلم تعالى ما صدرت عنه أعمال المكلفين من النيات الصالحة وغيرها؛ ولهذا يخبر في كتابه عند ذكر الجزاء والثواب والعقاب باطلاعه وعلمه بذات الصدور وبنيات العباد ومقاصدهم وسيجازيهم على ذلك إن خيرا فخير وإن شرًّا فشر.

٥- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]. إلى قوله: ﴿ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨]. ويضع إبهاميه على أذنيه والتي تليهما على عينيه. رواه أبو داود وابن حبان وابن أبي حاتم[(١)].

إنما وضع رسول الله ﷺ إصبعيه على أذنيه وعلى عينيه تحقيقا لإثبات سمع الله وبصره، وذلك أن كل اسم من أسماء الله الحسنى يشتق له صفة من صفاته ويترتب على ذلك حكم تلك الصفة؛ فالسميع البصير من أسمائه الحسنى ويدلان على سمع الله وبصره، وعلى أنه تعالى يسمع جميع المسموعات؛ السر والإعلان والخفي والجلي، ويبصر تعالى جميع المبصرات وإن دقت وصغرت كما قال بعضهم[(٢)]:

يا من يرى مد البعوض جناحها   في ظلمة الليل البهيم الأليل

(١) أبو داود (٤٧٢٨)، ابن حبان (٢٦٥)، تفسير ابن أبي حاتم (٥٥٢٤).

(٢) الكشاف ١/ ٧٢، وفيات الأعيان ٥/ ١٧٣.

ويرى نياط عروقها في نحرها والمخ من بين العظام النُّحل
امنن علي بتوبة تمحو بها ما كان مني في الزمان الأول

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]. يشمل هذا أمانات الولايات؛ فيجب ألا يولى الولاية كبيرة أو صغيرة إلا الأمناء أهل الكفاية والمعرفة بتلك الولاية، وكذلك أمانات الأموال؛ يجب على من هي بيده أن يحفظها وألا يسلمها إلا إلى صاحبها أو نائبه.

﴿ وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ [النساء: ٥٨]. وهذا يشمل القاضي والأمير وكل من يتولى الحكم بين اثنين أو جماعتين من الناس فعليه العدل في حكمه، وألا يراعي قريبا ولا صديقا ولا يحمله عداوة شخص على الحكم عليه بالهوى.

ولما أمر بأداء الأمانات إلى أهلها الذي هو وظيفة المؤتمنين، وبالحكم بالعدل الذي هو وظيفة الحاكمين، وكانت هذه الأحكام والأصول العظيمة قد بلغت نهاية الحسن والصلاح والإصلاح وأثمرت كل خير وبركة وفلاح - أثنى تعالى على أحكامه ومواعظه الجليلة فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾ [النساء: ٥٨]. أي: نعم ما يعظكم به ويرشدكم إليه من أصول الرشد والخيرات المنافية للشرور والهلكات.

وختمها بهذين الاسمين الكريمين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ [النساء: ٥٨]. ليعرفنا بنفسه وليرغبنا في قبول مواعظه ونصائحه، ويرهبنا من الإعراض عنها، ويحثنا على إصلاح النية فيما نأتي ونذر؛ فإن النية الصالحة روح الأعمال وبها يتحقق كل خير وكمال.

٦- وعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا متى تقوم الساعة إلا الله تبارك وتعالى»**. رواه مسلم[١].

---

(١) البخاري (٤٦٩٧). وغير موجود في مسلم.

قال الله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩]. المفاتيح قيل: إنها الخزائن. وقيل: إنها المفاتيح التي تفتح بها الخزائن. والمعنى متقارب؛ فالباري جلت عظمته وتعالى مجده قد أحاط علمه بكل شيء بجميع وجوه الإحاطة، يعلم جميع ما مضى وجميع ما سيأتي وما هو حاضر، ويعلم العالم العلوي والعالم السفلي، ويعلم الظواهر والبواطن والخفيات والجليات، ويعلم الواجبات والمستحيلات والممكنات، ويعلم ما اطلع عليه الخلق وما لم يطلعوا عليه، ومع سعة علمه وإحاطته فلا يضل ربي ولا ينسى، ولا يغيب عنه مثقال ﴿ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١] . وقد أطلع عباده على كثير من المعلومات وأخفى عنهم أكثرها حيث لا سبيل لعلومهم إلى إدراكها، أو حيث لا مصلحة لهم في علمها، ومن ذلك مفاتيح الغيب الخمس المذكورة في هذا الحديث، وهذه المذكورات كلها مستقبلة خفية عن علم الخلائق كلهم كما هو نص الحديث، وغاية ما عندهم علم أسباب ومقدمات لما يقع في مستقبل الزمان، وما يحصل من المطر فعلم الأسباب غير علم المسببات؛ لأن الأسباب لا تكفي وحدها لوجود مسببها، بل لا بد من انضمام قضاء الله وقدره؛ ولهذا كم من أمور يعزم عليها الخلق ويجزمون بوقوعها لتوفر أسبابها ثم تخفق الأسباب؛ ليري عباده أن الأمر أمره والحكم حكمه والقضاء قضاؤه ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]. فإن ما شاء الله كان ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده، فالأمر بفعل الأسباب النافعة لوجود مسبباتها الدينية والدنيوية لا ينافي أن الله مختص بعلم الغيوب المستقبلة، وكذلك علم الملك بوجود الجنين في بطن أمه إذا أرسله الله لنفخ الروح فيه، وكذلك الكشف الطبي عما في أرحام النساء من الأجنة كله لا ينافي أن الله مختص بعلم ما في الأرحام، فإن الماء الذي يتولد منه الولد لا سبيل لعلم أحد من الخلائق إليه، وأما انتقاله بعد ذلك في أطوار التخليق فقد

يعلمونه من وجه دون وجه آخر، والأطوار الأولة علمهم فيها قاصر جدًّا لا ينتهي إلى درجة العلم بل نهايته الظن، ثم ما تغيض الأرحام وما تزداده من إلقاء الجنين أو إبقائه أو زيادته أو نقصه أو موته أو حياته - كل ذلك لا علم لأحد من الخلق به، وكذلك معرفة الطبيعيين لبعض حوادث الجو وانعقاد السحاب وعدمه علم ظني بعلم بعض الأسباب التي قد يتولد عنها سحاب وقد لا يتولد، وإذا تولد سحاب قد يكون فيه مطر وقد لا يكون؛ فعلم ذلك على الحقيقة يختص الله به ولهذا لما سأل جبريل النبي ﷺ عن الساعة قال: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**»[1]. أي: أنا وأنت كلنا لا نعلمها، ولما سأله عن أشراطها وعلاماتها أخبره بها، فالعلم بالمقدمات غير العلم بالمقصود.

وهذه الخمس المذكورة في حديث ابن عمر رضي الله عنه نص الله عليها في كتابه في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان: ٣٤]. وسعة علم الرب وإحاطته بكل شيء أكبر دليل على عظمة الله وعظمة سلطانه وحكمته وعلى كمال قدرته، وأنه سيبعث العباد الأولين منهم والآخرين؛ ولهذا يستدل على البعث بالعلم مثل قوله: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ [ق: ٤]. ويستدل به على إيصال جزاء المحسنين والمسيئين إليهم، وأنه يعلم ما عملوه من خير وشر وما يترتب على أعمالهم من الجزاء والثواب والعقاب ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة: ٦].

ومن نعمة الله وحكمته طيه عن خلقه علم هذه الأشياء، وخصوصا علم الآجال ومتى تقوم الساعة، فإنهم لو علم كل إنسان إلى أين ينتهي أجله لحضره الهم والغم الذي ربما يقضي عليه، ولحصل التفريط والتجرؤ على المحارم، إذا علم أجله يقول المسرف: سوف أقضي لذاتي المحرمة ثم إذا دنا أجلي تبت وأنبت. ولم يعلم أن الذنوب والجرائم إذا رانت

(١) البخاري (٥٠)، مسلم (٨).

على القلوب فبعيد عليه جدًّا أن يتخلص منها، بل وكذلك إذا دنا أجله ربما وزع ماله على شهوته وإرادته وحرم ورثته المستحقين، وكذلك لو علم الناس ما يكون وما يجري في غد وفي مستقبل أمورهم من خير وشر ونفع وضرر - لتكدرت معيشتهم بل لتعطلت معائشهم، ولكن الأمور المستقبلة في الأرزاق والأسباب والخير والشر جعلها الله مجهولة لهم؛ لينشطوا على الأسباب النافعة ويحذروا من كل ما يخشى منه الضرر، وإبهام الله هذه الأمور وما أشبهها نافع للناس في أمور دينهم ودنياهم كما هو ظاهر لكل متأمل، مع أنه أيضا يضعف بذلك قوة توكل العباد على ربهم في حصول المنافع ودفع المضار فالتوكل يضعف، والنشاط في عمل الأسباب يضعف، وفي ذلك الضرر العظيم، فالحمد لله الذي علم العباد من شرعه وقدره ما به ينتفعون، وطوى عنهم ما ليس لهم به مصلحة، وما ليس لعقولهم سبيل إلى إدراكه.

٧- عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لله أشد فرحا بتوبة عبده حيث يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها فقال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح**» أخرجاه[1].

هذا الحديث عظيم يدل على سعة رحمة الله وجوده، وعلى رحمته ورأفته الخاصة بالآدمي، وأنه من إحسانه ومحبته تعالى لاستقامة عبده يفرح إذا تاب ورجع إليه هذا الفرح الذي ضرب له النبي ﷺ هذا المثل الذي لا يمكن أن يوجد فرح يتصور أبلغ منه؛ حيث فقد هذا الرجل الذي انفلتت منه راحلته أسباب حياته والأرض فلاة مهلكة لا يرجو من يستنقذه مما هو فيه فاضطجع ينتظر الموت ولا يشك فيه؛ لفقد أسباب الحياة كلها، فبينما هو كذلك إذ راحلته قائمة عند رأسه فأخذ بخطامها وأيقن بالحياة والنجاة دفعة واحدة؛ فانتقل من

(١) مسلم (٢٧٤٧). وغير موجود في البخاري.

اليأس الكامل إلى الأمن التام، فلا يتصور فرح أعلى من هذا، ومع هذا فالرب فرحه بتوبة عبده أشد من هذا الفرح، وهو جل جلاله لا ينتفع بطاعة الطائعين وإنما نفعها عائد إليهم، فهذا برهان على أنه تبارك وتعالى لم يخلق الخلق إلا ليتم عليهم نعمته بقيامهم بعبوديته أولا، ثم بنيلهم لغاية كرامته آخرا، فإنه يحب التوابين ويحب القائمين بعبوديته ظاهرا وباطنا، فإذا رجع عبده من ولاية الشيطان إلى ولايته ومن خروجه إلى مساخطه إلى رجوعه إلى محابه - أحب الله ذلك منه محبة شديدة مع غناه التام عنه، وفي هذا من البشارة والرجاء ما لا يمكن التعبير عنه، وفيه حث للعباد إلى رجوعهم إلى ربهم كل وقت، فإن في ذلك صلاحهم وفلاحهم وسعادتهم العاجلة والآجلة.

وفي هذا الحديث إثبات محبة الله لعباده المؤمنين وفرحه بتوبة التائبين، وسواء كان لتوبةٍ من الكفر إلى الإسلام أو من المعصية إلى الطاعة فإنه الرحمن الرحيم الرءوف الكريم، وهذا من آثار رحمته ورأفته وكرمه الخاص، اللهم أدخلنا برحمتك الخاصة في جملة عبادك الصالحين.

وفيه دليل أن الكلام الذي يصدر من الإنسان بلا قصد، بل خطأ لا إثم عليه، فهذا الرجل أراد أن يشكر ربه ويثني عليه بهذه النعمة العظمى، ويريد أن يقول: اللهم أنت ربي وأنا عبدك فأخطأ الصواب في لفظه فلم يؤاخذ بما قال، وفي تشبيه النبي ﷺ بصاحب الراحلة الموصوفة بتلك الصفات فائدة جليلة، وهو أن الطعام والشراب وتوابعها والركوب هي زاد السفر الحسي فكذلك التقوى والقيام بعبودية الله زاد السفر المعنوي، زاد الآخرة، وكما أن فقد الطعام والشراب وتوابعها يؤدي إلى التلف والهلاك، ووجودها به تحصل الحياة؛ فكذلك فقد التقوى بالإصرار على المعاصي يؤدي إلى الهلاك والشقاء، والتوبة منها والرجوع إلى الله هو طريق حياة القلب وحياة الدنيا والآخرة.

وفي هذا الحديث أيضا أكبر دليل على أن الله أرحم بعباده من الوالدين؛ بل أرحم بهم من أنفسهم، وعلى أن محبة الله غير مشيئته فالله تعالى يحب التوابين والمؤمنين والصالحين،

ومشيئته متعلقة بكل شيء، وعلى أنه تعالى بيّن لعباده طريق الخير وطريق الشر، ورغبهم في الخير ورهبهم من الشر، وجعل أفعالهم تابعة لإرادتهم واختيارهم فليس لأحد على الله حجة؛ لكنه تعالى جعل لهدايته أسبابا من سلكها هداه وزاده هدى وإيمانا، ولإضلاله أسبابا من اختارها لنفسه ولاه ما تولى لنفسه، ولم يوفقه للهداية لكمال حكمته تعالى، قال تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ [المائدة: ١٦]. وقال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠]. ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥].

٨- عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**». رواه مسلم[1].

وهذا من آثار جوده وكرمه ورحمته أن العاصين لا يعاجلهم بالعقوبات، بل يحلم عليهم ويمهلهم، بل يستدعيهم إلى التوبة عاجلا وعدم الإصرار عليها، ويرغبهم في رحمته ومغفرته وثوابه، وييسر لهم كل طريق يوصلهم إلى التوبة والإنابة، وأن هذا الاستدعاء والترغيب والتشويق لهم إلى التوبة مستمر لا ينقطع حتى تأتي مقدمات القيامة وتطلع الشمس من مغربها فيسد باب التوبة قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. وقد فسر ذلك النبي ﷺ بطلوع الشمس من مغربها، فكل من أسلم بعد ذلك أو تاب من ذنوبه أو ازداد عملا غير الذي كان يعمل لم ينفعه؛ لأن الأمر صار شاهدا والإيمان وتوابعه إنما ينفع إذا كان غيبا، ومفهوم الآية الكريمة أن المؤمن الذي كانت له أعمال يعملها قبل هذه الآيات أنه ينتفع بإيمانه السابق وأعماله السابقة، ويقارب هذا المعنى ما ثبت في صحيح مسلم مرفوعا: «**من مرض أو سافر كتب له ما كان يعمل**

(١) مسلم (٢٧٥٩).

صحيحا مقيما»[1]. ويدخل في المرض: الجنون والإغماء وكذلك بلوغ العبد سن التخريف إذا ترك ما كان يعمله وعقله معه يرجى أن يكتب له ما كان يعمله ومن نيته الاستمرار عليه، ولا يستغرب ذلك على كرم الكريم.

وفي هذا الحديث إثبات اليدين لله وقد ثبت بهما الكتاب والسنة، وطريقها عند أهل السنة طريق باقي الصفات أنه يجب إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته رسوله على الوجه اللائق بعظمة الباري من غير تعطيل ولا تمثيل، ومن الانحراف عن الصراط المستقيم أن نستدرك على الله وعلى رسوله فنحرف شيئا من صفاته ونقول: إن المراد بها كذا وكذا. مما هو مخالف لصريح النصوص؛ بل نقول ما قاله الله عن نفسه أو قاله رسوله متيقنين أنه الحق وما سواه باطل، ونسأل الله العافية من داء التعطيل لشيء منها وداء التمثيل.

وهذا الحديث الدال على كمال رحمة الله وسعة كرمه ومغفرته المقصود به أمران: أن نعرف الله تعالى بما عرفنا به نبينا ﷺ، وأن نسلك كل طريق يوصلنا إلى رحمته وكرمه ومغفرته نسأل الله أن يحقق لنا ذلك بمنه وكرمه.

٩- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قدم على النبي ﷺ بسبي هوازن فإذا امرأة من السبي تسعى إذ وجدت صبيا في السبي فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته فقال النبي ﷺ: **«أترون هذه طارحة ولدها في النار»**. قلنا: لا والله. فقال: **«الله أرحم بعباده من هذه بولدها»**. متفق عليه[2].

وهذا الحديث أيضا يدل على سعة رحمة الله وغلبتها وتقدمها على رحمة كل راحم، والنبي ﷺ أحب أن يفهم المسلمون عنه شدة رحمة الله ورأفته؛ حيث مثل بهذه الأم الحنون التي ذهلت نفسها وذهلت غيرها عند فقدها لولدها، ثم لما وجدته ألزقته في بطنها

---

(١) البخاري (٢٩٩٦). وهو غير موجود في مسلم كما قال الشيخ.

(٢) البخاري (٥٩٩٩)، مسلم (٢٧٥٤).

وأرضعته فالله أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وكيف تقارب رحمة الأم - وإن بلغت في الحنان ما بلغت - رحمة أرحم الراحمين الذي رحمة الوالدين ورحمة غيرهم لا تنسب إلى رحمة الله بوجه من الوجوه، فالله تعالى هو الذي برحمته أوجدهم، وبرحمته أحسن خلقهم وقوى أسرهم، وبرحمته جعل لهم القوى الظاهرة والباطنة، وبرحمته سبب لهم أسباب المعائش والأرزاق المتنوعة، وبرحمته أسبغ عليهم النعم الظاهرة والباطنة فما بالعباد من نعمة فمن الله، وبرحمته أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب وبين لهم طريق النجدين؛ طريق الخير والشر، وبرحمته حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين فضلا منه ونعمة، وبفضله ورحمته ألقى في قلوبهم التوبة فتابوا ثم قبلها منهم، وهو الذي برحمته أتاهم من كل ما سألوه بلسان المقال أو بلسان الحال، وبرحمته أعد للطائعين - الذين طاعتهم من رحمته - أعد لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر إلى غير ذلك من أجناس رحمته وأنواعها فضلا عن أفرادها، فمن هذه رحمته وهذا شأنه يستحيل أن تكون رحمة أحد تقارب أو تنسب إلى رحمة أرحم الراحمين.

وفي هذا الحديث الحث على السعي في طلب رحمته بسلوك كل سبب يوصل إلى الرحمة، وهي مذكورة في الكتاب والسنة، وفيه إثبات رحمة الله وأنها من جملة أوصافه والقائمة به التي لا تزال آثارها في كل اللحظات تترى على العباد، ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ ﴾[الروم: ٥٠].

١٠- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **«لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»**. رواه البخاري[١]، ولهما عنه[٢] أن رسول الله ﷺ قال: **«جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا ونزل في الأرض جزءا واحدا**

(١) البخاري (٣١٩٤)، وهو في مسلم (٢٧١٥).

(٢) أي: للبخاري ومسلم عن أبي هريرة.

فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»[(١)].
ولمسلم من حديث سلمان معناه وفيه: **«كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض فإذا كان يوم القيامة كملها بهذه الرحمة»**[(٢)].

هذان الحديثان كما سبق يدلان على سعة رحمة الله وأنها وسعت كل شيء، وكمال ذلك أن الله كتب على نفسه أن رحمتي تغلب أو تسبق غضبي، فهذا فيه بشرى عظيمة أنه إذا وجد موجبان؛ موجب للرحمة وموجب للغضب فإن رحمة الله تغلب غضبه، وقد ظهر ذلك في شرعه وفي قدره؛ حيث إن العامل للسيئات تكتب له السيئة واحدة، وهي على رجاء الغفران، وتكتب له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، والكون كله مملوء من رحمة الله، وهذه الرحمة التي في قلوب الخلق، والحنان فيما بينهم - خصوصا الأمهات على أولادها - جزء من مائة جزء من رحمة الله، وسيضم هذا الجزء إلى تسعة وتسعين جزءا؛ كل جزء يملأ ما بين السماوات والأرض فيرحم بها عباده، ويظهر في موقف القيامة للخلائق من رحمة الله وجزائه للطائعين وعفوه عن العاصين ما لا تعبر عنه الألسن، ولعل هذا سر ذكر الرحمن مقرونا بيوم الدين في عدة مواضع من القرآن؛ مثل قوله تعالى: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ [الفرقان: ٢٦]. وقوله: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ [طه: ١٠٨]. والعبد في هذه الدنيا إذا استحضر كثيرا من نعم الله عليه وعلى غيره وآثار رحمته أوجب له ذلك أن يمتلئ قلبه من محبة الله، وأن يسعى في كل سبب جعله الله موصلا إلى رحمته، وهذا من أعظم مقاصد نصوص الكتاب والسنة، فإنها كما أنها خبر عن الله فإنها حث للعباد على تعلق قلوبهم وأعمالهم بالله وبرحمته وجوده.

واعلم أن الرحمة صفة من صفات الله الذاتية الفعلية فإنه لم يزل ولا يزال رحيما متصفا بالرحمة، ومن آثارها جميع خيرات الدنيا والآخرة؛ ولهذا لما كانت الجنة جامعة من أصناف

(١) البخاري (٦٠٠٠)، مسلم (٢٧٥٢).
(٢) مسلم (٢٧٥٣).

النعيم وفنونه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من نعيم القلوب والأرواح والأبدان سماها الله رحمته فقال: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٧]. وفي الحديث الصحيح حين تحاجت الجنة والنار وفيه: «**فقال الله للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي. وقال للنار: أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها**»[١].

١١- وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة في الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدخر له في الآخرة ويعقبه رزقا في الدنيا على طاعته**». رواه مسلم[٢].

هذا الحديث يدل على خلاف ما يقوله كثير من أهل العلم من أن عمل الكافر مهدر غير مقبول، ويطلقون الكلام إطلاقا، والتحقيق أن في ذلك تفصيلا تدل عليه النصوص، وهو أن الحسنات التي يستحق بها دخول الجنة أو النجاة من النار أو الخروج منها لا يستثنى منها شيء، فليس شيء من أعمال الكفار - وإن كثرت - توجب دخول الجنة أو توجب النجاة أو توجب الخروج من النار؛ لأن النصوص من الكتاب والسنة تواترت في تحريم الجنة على كل كافر، وأنه لا يدخلها إلا المؤمنون كذلك تواترت في خلود جميع أصناف الكفار في النار، وأنه لا يخرج منها أحد لا بعمل عملوه ولا بشفاعة ولا غيرها، وأما الحسنات التي يعملها الكافر في الدنيا لله - وخصوصا الإحسان المالي أو غيره إلى الخلق - إذا كان قصده وجه الله فإن الله يطعمه في الدنيا ويجازيه فيها على ذلك العمل؛ إما بعافية بدنه أو سلامته من أخطار أو زيادة رزق أو حصول ولد أو غير ذلك مما يتنعم به في الدنيا كما دل عليه هذا الحديث، بل وكذلك في تخفيف عقوبات الدنيا وعقوبات الآخرة فإن الكفار في النار دركات بحسب غلظ كفرهم وخفته ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ [الأنعام: ١٣٢]. ولهذا

(١) البخاري (٤٨٥٠)، مسلم (٢٨٤٦).

(٢) مسلم (٢٨٠٨).

لما كان أبو طالب عم النبي ﷺ له من نصرة النبي ﷺ، والقيام معه ما هو معروف؛ خفف الله عنه عذاب النار فكان في ضحضاح من نار عليه نعلان يغلي منهما دماغه[1]. ولولا ذلك لكان في الدرك الأسفل من النار،لأن كفره كفر معرفة وعناد؛ لأنه تحقق أن محمدا رسول الله واعترف بذلك ولكن دين قومه وأجداده اختاره على دين الله، بل وكذلك العقوبات الدنيوية من تأمل عقوبات الله للطاغين رآها بحسب ما هم عليه من الطغيان؛ كما جرى للأقوام الذين كذبوا الأنبياء فعاقبهم عقوبات مناسبة لجرائمهم، وانظر لقضية الأحزاب الذين تحزبوا على النبي ﷺ وأصحابه يوم الخندق لما كان اليهود هم الأصل والسبب الذي جيشوا وحزبوا الأحزاب؛ صارت العاقبة السيئة على رءوسهم، ومن نظر في أحوال وقته وما قبله بيسير رأى معظم الشرور وفظائعها عمل أهل البغي والطغيان، وإن كان لغيرهم نصيب منها، هذه حالة الله في أعدائه وكلها موافقة للعدل والحكمة، وأما المؤمنون فإن الله يجمع لهم بين خير الدنيا والآخرة، فإذا عملوا الحسنات حصل لهم جزاء في الدنيا ورزق وحياة طيبة، وجزاء أخروي بحسب أعمالهم وفضل الله عليهم كما في هذا الحديث وكما في قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧]. ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾ [الطلاق: ٤].

١٢- وله عنه مرفوعا: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها»[2].

هذا الحديث فيه أن الله يرضى عن عبده إذا عمل ما يحبه: إما عبادات مستقلة كالصلاة والصيام والصدقة ونحوها وبر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الخلق وتوابع ذلك،

(١) البخاري (٣٨٨٥)، مسلم (٢١٠).

(٢) مسلم (٢٧٣٤).

فإن الأعمال الصالحة هي موضوع مراضيه، فمن فعل منها ما يرضيه؛ رضي الله عنه؛ ولهذا لما كمل المؤمنون مراتب الخير كلها أخبر عنهم بالرضا المطلق منه ومنهم فقال: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ [المائدة: ١١٩]. وقال: ﴿ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨] الآية. وقال: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ [التوبة: ١٠٠] الآية.

فقد أخبر عن جميع طبقات المؤمنين أنهم نالوا رضا ربهم لما قاموا بما يحبه ويرضاه، هذا النوع أشرف أنواع ما ينال به رضا الله.

النوع الثاني: العادات وتناول الطيبات من أكل وشرب وتوابعها، إذا تناولها العبد لقصد الاستعانة بها على طاعة الله وإقامة البنية والقيام بالواجب والمستحب له ولعائلته، ثم حمد الله عند تمامها - فإن الله يرضى عنه وتنقلب عاداته عبادات، وتكون الطيبات له خالصة يوم القيامة، فيجمع الله له بين نعيم الدنيا وطيبها وبين نعيم الآخرة، فسبحان من لا يحصي أحد ثناء عليه ولا تعد نعمه وآلاؤه.

وفي هذا الحديث إثبات الرضا لله كما في بقية النصوص من الكتاب والسنة، وهو صفة من صفات الله، وفيه إثبات الأفعال الاختيارية المتعلقة بمشيئة الله وقدرته، وأنها لا تزال في كل وقت، فالله في كل وقت ويوم له شأن من الشئون يبديها ويبتديها ولم يزل ولا يزال فعالا لما يريد مما تقتضيه حكمته وحمده تبارك وتعالى.

١٣- وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا فيه ملك ساجد لله تعالى، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم الى الصعدات تجئرون إلى الله**». رواه الترمذي، وقال حديث حسن(١).

(١) الترمذي (٢٣١٢).

قوله: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا**» في الصحيحين من حديث أنس[1].

هذا الحديث دليل على عظمة الله وعظمة سلطانه وكثرة الملائكة، واشتغالهم في كل أوقاتهم بالعبادات والخضوع لله تعالى فهم على سعة السماوات وعظمها قد ملئوها حتى لم يبق فيه موضع إلا هو معمور بهم، والأطيط: صوت الرحل إذا ثقل عليه الراكب أو الحمل. فالسماوات من كثرة الملائكة الذين عليها أطت ويحق لها أن تئط، وقال تعالى عن الملائكة: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

ثم خوفهم ﷺ هذا التخويف العظيم فقال: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجئرون إلى الله**». فأبهم ﷺ الشرط فدل على أنها المعلومات التي توجب هذه الآثار؛ وذلك كالعلم بعظمة الله وكبريائه وشدة عقابه وما أعد للعاصين من العذاب والنكال، والنبي ﷺ وإن كان يعلم هذه الأمور لكن لقوته وكماله وقدرته على أداء الحقوق لا يمنعه هذا العلم من القيام بحقوق الخلق والتلذذ بالنساء، أما أمته فلضعفهم وعجزهم عن تحمل هذا المعلوم الذي أشار إليه ﷺ، فمن رحمة الله بهم أنه لم يظهر لهم من عظمته وشدة عقابه إلا بقدر ما يتحملون، وبقدر ما يحصل به المقصود منهم بحيث لا يشغلهم عن القيام بمصالح دينهم ودنياهم، وهذا من نعمته وحكمته، ويقارب هذا أنه ﷺ كان يواصل وينهي أمته عن الوصال ويقول: «**أيكم مثلي إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني**»[2].

١٣ - ولمسلم عن جندب مرفوعا: «**قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان فقال الله تعالى: من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان؛ إني قد غفرت له وأحبطت عملك**»[3].

---

(١) البخاري (٤٦٢١)، مسلم (٢٣٥٩).

(٢) البخاري (٧٢٩٩)، مسلم (١١٠٣).

(٣) مسلم (٢٦٢١).

وهذا أيضا فيه بيان سعة فضل الله ومغفرته، فإن هذا الرجل الذي غفر الله له قد كان مسرفا على نفسه وكان هذا القائل يراه على الذنب المرة بعد المرة فينهاه، فحمله ما حمله حتى قال هذه المقالة التي فيها التألي على الله والحجر على رحمته، وفيها شوب ترفع ونوع كبر لعل هذا هو السبب الذي أحبط الله به عمله بهذه المقالة؛ فليحذر العبد من المقالات التي فيها نوع تألٍّ على الله وإدلال وترفع، وليعلم أن الله فوق ما يظن الظانون؛ فإنه الحليم الرحيم الذي يمهل عباده ويعفو عنهم ويفتح لهم أبواب الخير، ولا يمنعه معاودتهم للذنوب إذا رجعوا إليه وأنابوا.

١٤- وله عن أبي هريرة مرفوعا: **«لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد»**[١]. وللبخاري عن ابن مسعود مرفوعا: **«الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك»**[٢].

هذان الحديثان يوجبان للعبد أن يكون بين الخوف والرجاء إن نظر إلى رحمة الله العامة والخاصة رجا وطمع، وإن نظر إلى عدل الله وعقوبته للعاصين خاف وخشي، وكذلك في حديث ابن مسعود أن الجنة والنار أقرب إلى العبد من شراك نعله؛ لأن مدار ذلك على صحة الإيمان والتوحيد أو عدمه، فمن كان مؤمنا لا يشرك بالله شيئا فهو من أهل الجنة، ومن كان مشركا فهو من أهل النار، ومن قرب الجنة والنار أن العبد قد يعمل بطاعة الله في كل عمره ثم يزيغ عن الحق في آخر حياته فيكون من أهل النار، وقد يعمل بعمل أهل النار ثم يوفقه الله آخر حياته للإنابة إليه فيختم له بعمل أهل الجنة.

ومن ذلك: **«إن العبد يتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له رضوانا، ويتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له سخطه»**[٣].

---

(١) مسلم (٢٧٥٥).

(٢) البخاري (٦٤٨٨).

(٣) الترمذي (٢٣١٩)، ابن ماجه (٣٩٦٩)، وأصله في الصحيحين بلفظ آخر، البخاري (٦٤٧٨)، مسلم (٢٩٨٨).

ومن ذلك أن بَغِيًّا سقت كلبا يلهث من العطش ورحمته فرحمها الله وغفر لها، وأن امرأة عُذبت في هرة ربطتها حتى ماتت جوعا وعطشا. ومن ذلك أن من وصل رحمه وصله الله ومن قطعها قطعه الله. ومن ذلك أن من علم الله من نيته وقصده اتباع الهدى وفقه الله إليه وحبب إليه الإيمان وزينه في قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، ومن رد الحق ورأى طريقه فزهد فيه ولاه الله ما تولى وخذله وضل عن الصراط المستقيم، ومن أقبل على الله أقبل الله عليه، ومن أعرض عن الله أعرض عنه، وهكذا ما أشبه هذا من الأمثلة، وكذلك الأعمال تابعة لنياتها وإنما لكل امرئ ما نوى؛ ولهذا ذكر الشيخ بعده هذا الحديث.

١٥- وعن أبي هريرة مرفوعا: «**إن امرأة بغيا رأت كلبا في يوم حار يطيف ببئر قد اندلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فسقته فغفر الله لها به**»[(١)]. وقال: «**دخلت النار امرأة في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا أرسلتها تأكل من خشاش الأرض**». قال الزهري: لئلا يتكل أحد ولا ييأس. أخرجاه[(٢)].

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ يجعلون له الولد وهو يعافيهم ويرزقهم**». رواه البخاري[(٣)].

وذلك أن من أسمائه الحسنى الذاتية الحليم الصبور، فحلمه تعالى وصبره لا يمكن أن يماثله فيه أحد كبقية صفاته، وحلمه وصبره عن كمال قدرة وعن سعة رحمة، فالخلق يؤذونه بتكذيبه ومحاربته ومحاربة رسله، وهو تعالى يمهلهم ويمدهم بالعافية والأرزاق والنعم السابغة، خيره إليهم نازل وشرهم إليه صاعد، يتحبب إليهم بالنعم مع كمال غناه عنهم ويتمقتون إليه بالمعاصي مع شدة فقرهم إليه، وهذا الحلم والصبر العظيم الذي لا يشبهه شيء مما يجذب قلوب العباد إليه وإلى الإنابة إليه والحياء منه، ولما كانت هكذا معاملته

---

(١) مسلم (٢٢٤٥).

(٢) البخاري (٣٣١٨)، مسلم (٢٦١٩). وقول الزهري رواه مسلم.

(٣) البخاري (٧٣٧٨)، وهو في مسلم كذلك (٢٨٠٤).

للعاصين فكيف معاملته للطائعين، ومع هذا الحلم والصبر إذا تاب العبد إليه محي عنه ما سلف من الجنايات فكأنه ما كان منه شيء، فنسأله تعالى أن يعرفنا به وبأسمائه وصفاته معرفة صحيحة إنه جواد كريم.

١٦- وله عن أبي هريرة مرفوعا: «**إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض**»(١).

وهذا من آثار رحمته ولطفه بأصفيائه وأحبائه الذين قاموا بمحابه أن الله يحبهم ويحببهم إلى ملائكته وإلى أهل الأرض، وهو من البشارات العاجلة، ولا ريب أن محبة الملائكة لهم ومحبة المؤمنين ينالهم فيها خيرات كثيرة فنفس محبتهم لهم نافعة لهم حيث كانت لله متصلة به وما يتأثر عنها من الدعاء والثناء والصلاة عليهم، وإذا أحبه المؤمنون ووضع له القبول بين الناس كان كلامه معتبرا ونصائحه مقبولة وآثاره مأثورة وأقواله وأفعاله مؤتما بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وفي هذا الحديث كغيره من النصوص في الكتاب والسنة إثبات محبة الله لأحبابه ولخيار خلقه، وأن ثمراتها أجلّ الثمرات، فإذا كانت هذه الثمرات الخارجية محبة خيار الخلق له من الملائكة والآدميين فما ظنك بما يوفقه الله له من الأعمال الداخلة في كسبه وأن الله سينميها له أضعافا مضاعفة وما ذلك على كرم الودود بعزيز.

١٧- وعنه رضي الله عنه مرفوعا: «**عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل**». رواه أحمد والبخاري(٢).

وهؤلاء هم الذين كانوا راضين بما هم عليه من الكفر وترك الإيمان بالله المفضي

(١) البخاري (٣٢٠٩)، مسلم (٢٦٣٧).
(٢) البخاري (٣٠١٠)، أحمد (٨٠١٣).

بصاحبه إلى الهلاك الأبدي، فيقيض الله لهم من يلزمهم أن يهتدوا إلزاما؛ إما بجهاد المجاهدين الذين يجاهدون في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا؛ فيقاومونهم هؤلاء الكفار فينصر الله المسلمين عليهم ويذعنون إلى الحق ويدخلون في الدين كرها وخوفا، وبعد ذلك يكون الدين أحب إليهم من كل شيء كما هو حال أكثر من يدخل في الإسلام رهبة أو رغبة، وكذلك من يلتزم التوبة من العصاة، أو يسلك طريقا من الخير بغير اختياره ثم بعد ذلك يحسن نيته وقد ورد في الحديث: إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن[1].

وعن جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**» - وتلا قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[ق: ٣٩]. رواه الجماعة[2].

هذا الحديث من جملة الأدلة الكثيرة الدالة على أن المؤمنين يرون ربهم تعالى في الجنة ويتنعمون برؤيته، وذكر لهم هذا المثال الذي هو أوضح الأمثلة، وهذا تمثيل للرؤية بالرؤية لا للمرئي - وهو القمر - بالمرئي وهو الله؛ لأنه ليس كمثله شيء. وبعدما ذكر النبي ﷺ رؤيتهم لله تعالى حضهم على المحافظة على صلاة الفجر وصلاة العصر؛ لأنه ثبت في الصحيحين: «من حافظ على البردين دخل **الجنة**»[3]. أي: ومن دخل الجنة رأى ربه تبارك وتعالى.

وقد ثبت في الصحيح أن خواص الخلق ينظرون إلى ربهم بكرة وعشيا[4]، فلعل الحديث أشار إلى أن من حافظ على الفجر والعصر وافتتح نهاره وختمه بذكر الله - رجي أن يكون من الذين ينظرون إلى الله بكرة وعشيا.

---

(١) قول مأثور عن عمر بن الخطاب، أورده الخطيب في تاريخ بغداد ١/ ١٠٧.

(٢) البخاري (٥٧٣)، مسلم (٦٣٣)، أبو داود (٤٧٢٩)، الترمذي (٢٥٥١).

(٣) البخاري (٥٧٤)، مسلم (٦٣٥). بلفظ مقارب.

(٤) الترمذي (٢٥٥٣).

١٨- وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه**». رواه البخاري[١].

هذا أشرف حديث في فضل الأولياء أو كرامتهم على الله؛ فمن ذلك أن الله جعل معاداتهم محاربة له لمحبته لهم وعلو مقامهم وأن الله تعالى يسددهم في جميع حركاتهم وسكناتهم ويكون معهم في كل أحواله إذا قاموا بولايته، وأن ولاية الله مدارها على أداء فرائض الله والقيام بحقوقه وحقوق عباده، ثم الازدياد من نوافل العبادات كلها من صلاة وصيام وصدقة وحج وذكر وقراءة وتعلم علم وتعليمه، وذلك من العبادات ومن الإحسان المتعلق بمن لهم حق خاص من أقارب وجيران ومماليك ومعاملين وأصحاب، ومن لهم حق عام من جميع الخلق فمن أدى الفرائض وتقرب إلى الله بالنوافل - أحبه الله وسدده وكان الله معه وأجاب الله دعوته وأحب الله كرامته وكره الله مساءته حتى في الأمر الذي لا بد منه وهو الموت، فإن الله قضى قضاء محتما أن كل نفس ذائقة الموت، ولما كان وليه عنده في غاية الكرامة والله أرحم به من والديه ومن نفسه - صارت كراهة الولي للموت يكرهها الله لمشقتها على عبده المؤمن، ولكن الله منفذ أمره، ومع ذلك فهذه المشقة العظيمة التي يجدها المؤمن عند الموت يثيبه الله عليها، فإنه تعالى قضى أنه لا يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه[٢]. وكذلك مع ثوابه يلطف به في هذا المصرع ويتحمل عنه ويسهل عليه، فإنه من تعرف إلى الله في الرخاء عرفه في الشدة وأعانه على كل مشقة.

(١) البخاري (٦٥٠٢).

(٢) البخاري (٥٦٤٢)، مسلم (٢٥٧٢).

وفي هذا الحديث إثبات محبة الله لعباده المؤمنين وأنها تتفاوت بتفاوت ما منّ الله به على أوليائه من طاعته وطاعة رسوله قلةً وكثرة وحسنا وضده، وفيه أن الفرائض أفضل من النوافل وأنها مقدمة عليها فمتى تزاحمت الفرائض والسنن فالفرائض هي المقدمة. اللهم إنا نسألك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يقربنا إلى حبك.

وفي الحديث برهان على أن محبة الله غير مشيئته، فإن مشيئته تتعلق بكل كائن موجود فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأما محبة الله فإنها تتعلق بما يحبه الله من الأشخاص والأعمال فمحبته خاصة ومشيئته عامة.

واعلم أن معاداة أولياء الله نوعان:

- **أحدهما**: أن يعاديهم لأجل ولايتهم لله وقيامهم بدينه، فهذا كفر وردة ومحاربة تامة لله ورسوله.
- **والنوع الثاني**: أن يعاديهم لأغراض دنيوية ولعصبية جاهلية ولتأويل يحسبه المتأول حقًّا، فهذا لا يلحق بالأول، وهذا النوع مراتب بحسب الدواعي إلى هذه المعاداة، وبحسب ما يقوم في القلوب من الشبه حتى قد يشتبه الأمر على طائفتين أو شخصين كل منهم يرى أن الحق معه، وكلهم يريد الحق، فهذا النوع لا يدخل في هذا الحديث فلا بد من هذا النظر وهذا التفصيل، وتفصيل القضايا في هذا يطول. والله أعلم.

١٩- وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من ما يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»**. متفق عليه[1].

أحاديث نزول الرب إلى السماء الدنيا تواترت واعتقدها أهل السنة على حقيقتها وتبرءوا من تحريفات أهل البدع، وعلموا مع ذلك أن الله لم يزل ولا يزال عليًّا، وأنه ينزل كيف يشاء

(١) البخاري (١١٤٥)، مسلم (٧٨٥).

ليس كمثله شيء، وهذا يدل على كمال رحمته وعنايته العظيمة بعباده ولهذا في بعض ألفاظ هذا الحديث أن الله يقول: **«لا أسأل عن عبادي غيري»**(1). وهذا من رحمته الخاصة حيث يدعو عباده إلى دعائه وسؤاله واستغفاره ووعده أن يستجيب لهم، وحث لهم على القيام في آخر الليل والتهجد والتضرع إليه، وهذا أخص من قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]. فتبارك من كثرت خيراته وتوالت على عباده مبراته وبركاته.

٢٠- وعن أبي موسى مرفوعا: **«جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»**. رواه البخاري(2).

الظاهر أن هاتين الجنتين الذهبيتين والجنتين الفضيتين هما المذكورتان في قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]. وهما الذهبيتان، ثم وصفهما بتلك الأوصاف العظيمة ثم قال: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٢]. وهما الفضيتان، ثم وصفهما، وفي كلتا الجنتين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وفي هذا الحديث بيان لكمال قربهم من ربهم وابتهاجهم برضوانه والنظر إليه، وأهل الجنة درجات متفاوتة جدًّا بحسب ما قاموا به من الإيمان وشرائعه؛ فأعلاهم المقربون وهم السابقون في الدنيا إلى كل خير، ثم المقتصدون، ثم من دونهم وما فيهم دني، بل كل واحد عنده من النعيم الكامل والسرور التام وأصناف الخيرات ما لا يريد له بدلا ولا يطلب عنه حولا، نسأل الله من فضله وكرمه.

---

(١) أحمد (١٦٢١٥)، الدارمي (١٥٢٢).

(٢) البخاري (٤٨٧٨)، مسلم (١٨٠).